تجذر الإيمان
الشيخ / أشرف عبد المنعم

# ٢ - تجذر الإيمان

يا ربي لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك و عظيم سلطانك ، أنت الحق ، و وعدك حق ، و لقاؤك حق ، والجنة حق ، و النار حق ، ومحمد حق ، صلى الله عليه و سلم ، و على آله الطيبين ، و ورثته الصادقين ، و أتباعه المؤمنين ، إلى يوم اللقاء العظيم . و بعد ...

فها هي الدنيا الفانية – على زخرفها - مدبرة ، و ها هي الآخرة الباقية – مهما غُفل عنها – مقبلة ، و ها هو الإيمان – على مر الزمان و اختلاف الأحوال – يبقى .. أمل نجاة ... و هدف حياة ... ليست كأي حياة ... ( يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله و للرسول إذا دعاكم لما يحييكم )[١].

## ٭ أتدري أخي لماذا لا يكفيك الإسلام ، بل أنت مدعوٌّ إلى الإيمان ؟!

لأن" الله لم يعلق وعد الجنة إلا باسم الإيمان ، لم يعلقه باسم الإسلام مع إيجابه الإسلام و إخباره أنه دينه الذي ارتضاه ، و أنه لايقبل ديناً غيره ، و مع هذا فما قال : إن الجنة أعدت للمسلمين ، و لا قال : وعد الله المسلمين بالجنة ، بل إنما ذكر ذلك باسم الإيمان ، كقوله : ( وعد الله المؤمنين و المؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار )[٢]. فهو يعلقها باسم الإيمان االمطلق ، أو المقيد بالعمل الصالح ، كقوله : ( إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات أولئك هم خير البرية(٧) جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار )[٣] . و قوله : ( و بشر الذين آمنوا و عملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من حتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل )[٤] ... و قوله : ( فأما الذين آمنوا بالله و اعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه و فضل و يهديهم إليه صراطاً مستقيماً( ١٧٥ ) )[٥] ... و قال: ( وعد الله الذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم مغفرة و أجر عظيم )[٦] ... و الآيات في هذا المعنى كثيرة[٧] .

فالوعد بالجنة و الرحمة في الآخرة ، و بالسلامة من العذاب ، علق باسم الإيمان المطلق ، و المقيد بالعمل الصالح و نحو ذلك"[٨] إذ " الإيمان المطلق يدخل فيه فعل ما أمر الله به و رسوله ، و لم يعلق باسم الإسلام "[٩] .

## ٭ فإن تساءلت : ما سرُ هذا ؟!.. و ما أصناف المسلمين غير المؤمنين ؟!

فلتعلم أن الإسلام " يتناول من أظهر الإسلام و ليس معه شيئ من الإيمان ، و هو المنافق المحض[١٠] . و يتناول من أظهر الإسلام مع التصديق المجمل في الباطن و لكن لم يفعل الواجب كله لا من هذا و لا هذا[١١] ، و هم الفساق يكون في أحدهم شعبة نفاق[١٢] . و يتناول من أتى بالإسلام الواجب و ما يلزمه من الإيمان ، و لم يأت بتمام الإيمان الواجب . و هؤلاء ليسوا فساقاً تاركين فريضة ظاهرة ، و لا مرتكبين محرماً ظاهراً ، لكن تركوا من حقائق الإيمان

---

(١) [ الأنفال – ٢٤ ] .
(٢) [ التوبة - ٧٢ ] .
(٣) [ البينة - ٧:٨ ] .
(٤) [ البقرة - ٢٥ ] .
(٥) [ النساء - ١٧٥] .
(٦) [ المائدة – ٩ ] .
(٧) و قد اختصرنا ما ذكره – رحمه الله- .
(٨)الإيمان [ ٢٧٢ : ٢٧٣ ] .
(٩)الإيمان [ ٢٧٣ ] .
(١٠) فهذا الأول .
(١١) أي: الإسلام و الإيمان . أو: الدين الظاهر والدين الباطن .
(١٢) و هذا الثاني .

الواجبة علماً ، و عملاً بالقلب يتبعه بعض الجوارح ما كانوا به مذمومين[١٣] ، و هذا هو النفاق الذي كان يخافه السلف على نفوسهم ، فإن صاحبه قد يكون فيه شعبة نفاق . "[١٤]

## *وما طريق الارتقاء من الإسلام إلى الإيمان ؟

إن الواحد من الصنفين الأخيرين – لأنه من أهل الإسلام الصحيح - معه " إقراره بقلبه أنه لا إله إلا الله ، و أن محمداً رسول الله ، فيكون معه من الإيمان هذا الإقرار ، و هذا الإقرار لا يستلزم أن يكون صاحبه معه من اليقين ما لا يقبل الريب ، و لا أن يكون مجاهداً و لا سائر ما يتميز به المؤمن عن المسلم الذي ليس بمؤمن ، وخلق كثير من المسلمين باطناً وظاهراً معهم هذا الإسلام بلوازمه من الإيمان ، ولم يصلوا إلى اليقين والجهاد"[١٥] . فاليقين والجهاد هما طريق الإيمان ...

## * فما هو اليقين إذا ؟!

إن اليقين هو " طمأنينة القلب ، و استقرار العلم فيه ، و هو معنى ما يقولون : " ماء يقن " إذا استقر عن الحركة . و ضد اليقين الريب ، و هو نوع من الحركة والاضطراب ، يقال : رابني يريبني ، و منه في الحديث أن النبي (صلى الله عليه و سلم ) مرَ بظبي حاقف فقال " لا يريبه أحد "[١٦] .

ثم اليقين ينتظم منه أمران : علم القلب ، و عمل القلب ، فإن العبد قد يعلم علماً جازماً بأمر ، و مع هذا فيكون في قلبه حركة و اختلاج من العمل الذي يقتضيه ذلك العلم ، كعلم العبد أن الله رب كل شيء و مليكه ، و لا خالق غيره ، و أنه ما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن ، فهذا قد تصحبه الطمأنينة إلى الله و التوكل عليه ، و قد لا يصحبه العمل بذلك ، إما لغفلة القلب عن هذا العلم ، و الغفلة هي ضد العلم التام ، و إن لم تكن ضدا لأصل العلم ، و إما للخواطر التي تسنح في القلب من الالتفات إلى الأسباب ، و إما لغير ذلك .

وفي الحديث المشهور الذي رواه أبو بكر عن النبي (صلى الله عليه و سلم) أنه قال:" سلوا الله اليقين و العافية ، فما أعطي أحد بعد اليقين شيئاً خيراً من العافية ، فسلوهما الله "[١٧] فأهل اليقين إذا ابتلوا ثبتوا ، بخلاف غيرهم ، فإن الابتلاء قد يذهب إيمانه أو ينقصه. قال – تعالى - : ( و جعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا و كانوا بآياتنا يوقنون )[١٨] . ألا ترى إلى قوله – تعالى - : ( الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا و قالوا حسبنا الله و نعم الوكيل )[١٩] . فهذه حال هؤلاء . و قال - تعالى - : ( يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً و جنوداً لم تروها و كان الله بما تعملون بصيراً ) إلى قوله : ( هنالك ابتلي المؤمنون و زلزلوا زلزالاً شديداً . و إذ يقول المنافقون و الذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله و رسوله إلا غروراً )[٢٠] و قال - تعالى - : ( و ما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة و ما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب و يزداد الذين آمنوا إيمانا و لا يرتاب الذين أوتوا الكتاب )[٢١] الآيتين ...

---

(١٣) و هذا الثالث .
(١٤)الإيمان [ ٢٣٣ ] .
(١٥)الإيمان [ ٢١٢ : ٢١٣ ] .
(١٦) صحيح : رواه النسائي ( ١٨٣/٥ ) و أحمد ( ٤٥٢/٣ ) و ابن حبان ، موارد الظمآن ( ٩٨٣ ) ، و مالك في الموطأ في كتاب الحج برقم ( ٨٢ )
(١٧) صحيح : رواه أحمد ( ٣/١ ) .
(١٨) [ السجدة – ٢٤ ] .
(١٩) [ آل عمران – ١٧٣ ] .
(٢٠) [ الأحزاب - ٩ : ١٢] .
(٢١) [ المدثر - ٣١ : ٣٢] .

## * و أما كيف يحصل اليقين؟!

## فبثلاثة أشياء :

### أحدها : تدبر القرآن[٢٢] .

**... فإن الله – سبحانه – بين في كتابه كل ما يحتاج إليه في أصول الدين، قرر فيه التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، بالبراهين التي لا ينتهي إلى تحقيقها نظر ... و احتج فيه بالأمثال الصمدية ، التي هي المقاييس العقلية المفيدة لليقين "[٢٣]. فالله – عز وجل - " لم يدل عباده بالقرآن بمجرد الخبر "** [٢٤].

**لذلك كان سماع القرآن هو " السماع الذي شرعه الله – تعالى – لعباده ، و كان سلف الأمة من الصحابة و التابعين و تابعيهم يجتمعون عليه لصلاح قلوبهم ، و زكاة نفوسهم ... و هو سماع النبيين  و المؤمنين ، و أهل العلم ، وأهل المعرفة .**

قال الله- تعالى – لما ذكر من ذكره من الأنبياء في قوله : ( أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم و ممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم و إسرائيل و ممن هدينا و اجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً )[٢٥] و قال : ( إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم و إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً و على ربهم يتوكلون )[٢٦]"[٢٧]  إذ " من أحوال القلب و أعماله ما يكون من لوازم الإيمان الثابتة فيه ، بحيث إذا كان الإنسان مؤمناً ، لزم ذلك بغير قصد منه و لا تعمد  له ، و إذا لم يوجد دل على أن الإيمان الواجب لم يحصل في القلب،"[٢٨] " و قال - تعالى -: ( إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً و يقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا و يخرون للأذقان يبكون و يزيدهم خشوعاً )[٢٩] و قال - تعالى -: (  و إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق )[٣٠] .

**و بهذا السماع أمر الله – تعالى** - كما  قال - تعالى – : (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له و أنصتوا لعلكم ترحمون )[٣١]. و على أهله أثنى كما في قوله – تعالى - : ( فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه )[٣٢] و قال في الآية الأخري : ( أفلم  يدبروا القول أم جاءهم ما

---

(٢٢) قال الإمام ابن القيم – رحمه الله - : " إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته و سماعه ، و ألق سمعك و احضر حضور من يخاطبه به من  تكلم به – سبحانه – منه إليه ، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ، قال – تعالى - : ( إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد ) [ ق -٣٧ ]  و ذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتضٍ ، و محل قابل ، و شرط لحصول الأثر ، و انتفاء المانع الذي يمنع منه ، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ و أبينه و أدله على المراد .
فقوله : ( إن في ذلك لذكرى ) إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى ها هنا ، و هذا هو المؤثر ، و قوله:( لمن كان له قلب )  فهذا هو المحل القابل ، و المراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله ، كما قال – تعالى - : ( إن هو إلا ذكر و قرآن مبين(٦٩) لينذر من كان حيا )  [يس - ٦٩ : ٧٠ ]  أي : حي القلب .
و قوله : ( أو ألقى السمع ) أي : وجه سمعه و أصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له ، و هذا شرط التأثر بالكلام .
و قوله : ( و هو شهيد ) أي : شاهد القلب حاضر غير غائب . قال ابن قتيبة : " استمع كتاب الله وهو شاهد القلب و الفهم ، ليس بغافل و لا ساهٍ "      و هو إشارة إلى المانع من حصول التأثير ، و هو سهو القلب و غيبته عن عقل ما يقال له و النظر فيه وتأمله ، فإذا حصل المؤثر و هو القرآن ، و المحل القابل و هو القلب الحي ، و وجد الشرط و هو الإصغاء ، و انفى المانع و هو اشتغال القلب و ذهوله عن معنى الخطاب و انصرافه عنه إلى شئ آخر ، حصل الأثر و هو الانتفاع و التذكر". [ أول كتاب الفوائد ]

(٢٣) مجموع الفتاوى [ ٣ /٣٢٩ : ٣٣٢ ] .
(٢٤) السابق [ ٣ /٣٣١ ]  .
(٢٥) [ مريم - ٥٨ ] .
(٢٦) [ الأنفال - ٢] .
(٢٧) مجموع الفتاوى [ ١١ /٥٥٧ : ٥٥٨ ]  .
(٢٨) الإيمان [ ١٧ ]  .
(٢٩) [ الإسراء - ١٠٧ : ١٠٩] .
(٣٠) [ المائدة - ٨٣ ] .
(٣١) [ الأعراف - ٢٤] .
(٣٢) [ الزمر - ١٧ :١٨ ] .

لم يأت آباءهم الأولين )[٣٣] فالقول الذي أمروا بتدبره هو القول الذي أمروا باستماعه . و قد قال – تعالى -: ( أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها )[٣٤] و قال - تعالى - : ( كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته )[٣٥] .

**وكما أثنى على هذا السماع ، ذم المعرضين عن هذا السماع** ، فقال - تعالى – : ( و إذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً )[٣٦] و قال - تعالى – : ( و قال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن و الغوا فيه لعلكم تغلبون )[٣٧] و قال - تعالى – : ( وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً. و كذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين و كفى بربك هادياً و نصيراً )[٣٨] و قال - تعالى – : ( فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة )[٣٩] و قال - تعالى – : ( و قالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه و في آذاننا و قر و من بيننا و بينك حجاب )[٤٠] و قال - تعالى – : ( و إذا قرأت القرآن جعلنا بينك و بين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً. و جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه و في آذانهم وقراً )[٤١] .

**و هذا هو السماع الذي شرعه الله لعباده في صلاة الفجر ، و العشائين ، و غير ذلك ، و على هذا السماع كان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه و سلم ) يجتمعون ، و كانوا إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ و الباقون يستمعون** ، و كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه – يقول لأبي موسى : يا أبا موسى ، ذكرنا ربنا. فيقرأ و هم يستمعون . و هذا هو السماع الذي كان النبي (صلى الله عليه وسلم ) يشهده مع أصحابه ، و يستدعيه منهم ، كما في الصحيح عن عبد الله بن مسعود ، قال : " قال النبي (صلى الله عليه و سلم ) :" اقرأ علي القرآن " قلت : أقرأه عليك و عليك أنزل ؟! فقال : " إني أحب أن أسمعه من غيري " فقرأت عليه سورة النساء حتى وصلت إلى هذه الآية:( فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد و جئنا بك على هؤلاء شهيداً )[٤٢] قال:" حسبك " فنظرت، فإذا عيناه تذرفان."[٤٣] **وهذا هو الذي كان النبي(صلى الله عليه و سلم ) يسمعه هو و أصحابه** كما قال - تعالى - : ( لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب و الحكمة )[٤٤] و" الحكمة "هي السنة .

و قال - تعالى - : ( إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها و له كل شيئ و أمرت أن أكون من المسلمين . و أن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه و من ضل فقل إنما أنا من المنذرين )[٤٥] و كذلك غيره من الرسل ، قال - تعالى - : ( يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى و أصلح فلا خوف عليهم و لا هم يحزنون )[٤٦] **و بذلك يحتج عليهم يوم القيامة** ، كما قال – تعالى – : ( يا معشر الجن و الإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آيات ربكم و ينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا و غرتهم الحياة الدنيا و شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين )[٤٧] و قال – تعالى – : ( وسيق الذين كفروا إلى

---

(٣٣) [ المؤمنون - ٦٨] .
(٣٤) [ محمد - ٢٤ ] .
(٣٥) [ ص - ٢٩ ] .
(٣٦) [ لقمان - ٧ ] .
(٣٧) [فصلت - ٢٦] .
(٣٨) [ الفرقان - ٣٠:٣١] .
(٣٩) [ المدثر - ٤٩:٥١] .
(٤٠) [ فصلت - ٥ ] .
(٤١) [ الإسراء - ٤٥: ٤٦] .
(٤٢) [ النساء - ٤١ ] .
(٤٣) متفق عليه : أخرجه البخاري في التفسير برقم [ ٤٥٨٧ ] و مسلم في صلاة المسافرين [ ٢٤٨/٨:٢٤٧ ] .
(٤٤) [ آل عمران - ١٦٤] .
(٤٥) [ النمل - ٩١: ٩٢] .
(٤٦) [ الأعراف - ٣٥] .
(٤٧) [ الأنعام - ١٣ ] .

جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها و قال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم و ينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى و لكن حقت كلمة العذاب على الكافرين )(٤٨) .

**و قد أخبر أن المعتصم بهذا السماع مهتد مفلح ، و المعرض عنه ضال شقي .** قال – تعالى – : ( فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل و لا يشقى . و من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا و نحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى و قد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها و كذلك اليوم تنسى )(٤٩) ، و قال – تعالى –: ( و من يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين )(٥٠) و ذكر الله يراد به تارة : ذكر العبد ربه ، و يراد به الذكر الذي أنزله الله كما قال – تعالى - : ( و هذا ذكر مبارك أنزلناه )(٥١) و قال نوح : ( أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم )(٥٢) و قال : ( و قالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون )(٥٣) و قال : ( ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه )(٥٤) و قال : ( و إنه لذكر لك و لقومك )(٥٥) و قال : ( إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم )(٥٦) و قال : ( و ما علمناه الشعر و ما ينبغي له إن هو إلا ذكر و قرآن مبين )(٥٧) .

**وهذا السماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية ، والأحوال الزكية ، يطول شرحها و وصفها ، وله في الجسد آثار محمودة من خشوع القلب ، ودموع العين ، واقشعرار الجلد ، وهذا مذكور في القرآن(٥٨) و هذه الصفات موجودة في الصحابة ...**

**وبالجملة فهذا السماع هو أصل الإيمان** ، فإن الله بعث محمداً (صلى الله عليه و سلم ) إلى الخلق أجمعين ليبلغهم رسالات ربهم ، فمن سمع ما بلغه الرسول فآمن به واتبعه اهتدى و أفلح ، و من أعرض عن ذلك ضل و شقى "(٥٩) إذ " القرآن شفاء لما في الصدور ، ومن في قلبه أمراض الشبهات و الشهوات ، ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل ، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم و التصور و الإدراك ، **بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه** ، و فيه من الحكمة و الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب و القصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب ، فيرغب القلب فيما ينفعه و يرغب عما يضره ، فيبقى القلب محباً للرشاد مبغضاً للغي ، بعد أن كان مريداً للغي مبغضا للرشاد .

**فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة ، حتى يصلح القلب فتصلح إرادته ، و يعود إلى فطرته التي فطر عليها كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي ، و يغتذي القلب من الإيمان و القرآن بما يزكيه و يؤيده ، كما يتغذي البدن بما ينميه و يقويه ، فإن زكاة القلب مثل نماء البدن ."(٦٠)**

(٤٨) [ الزمر - ٧١ ] .
(٤٩) [ طه - ١٢٣: ١٢٦] .
(٥٠) [ الزخرف - ٣٦] .
(٥١) [ الأنبياء - ٥٠] .
(٥٢) [ الأعراف - ٦٣] .
(٥٣) [ الحجر - ٦ ] .
(٥٤) [ الأنبياء - ٢ ] .
(٥٥) [ الزخرف - ٤٤ ] .
(٥٦) [ التكوير - ٢٧ : ٢٨] .
(٥٧) [ يس - ٦٩ ] .
(٥٨) كما في [ الأنفال - ٢] و [ الزمر - ٢٣ ] و [ مريم - ٥٨ ] و [ المائدة - ٨٣] و [ الإسراء - ١٠٩] . .
(٥٩) مجموع الفتاوى [ ١١ /٥٥٧ : ٥٦٢ ] .
(٦٠) مجموع الفتاوى [ ١٠ /٩٥ : ٩٦ ] .

## " و الثاني : تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس و الآفاق ، التي تبين أنه الحق ...

قال- تعالى - : ( سنريهم آياتنا في الآفاق و في أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد )(٦١) والضمير عائد على القرآن كما قال – تعالى - : ( قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد . سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم الحق )(٦٢) ... **فبين – سبحانه – أنه يري الآيات المشهودة ليبين صدق الآيات المسموعة ، مع أن شهادته بالآيات المسموعة كافية .**

**أما الآيات المشهودة ، فإن ما يشهد و ما يعلم بالتواتر من عقوبات مكذبي الرسل و من عصاهم ، و من نصر الرسل و أتباعهم على الوجه الذي وقع** ، و ما علم من إكرام الله – تعالى – لأهل طاعته و جعل العاقبة له ، و انتقامه من أهل معصيته و جعل الدائرة عليهم فيه عبرة تبين أمره و نهيه ، و وعده و وعيده ، و غير ذلك ، مما يوافق القرآن ، و لهذا قال – تعالى - : ( هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا ) إلى قوله : ( فاعتبروا يا أولي الأبصار )(٦٣)، **فهذا يبين الاعتبار في أصول الدين ، و إن كان قد تناول الاعتبار في فروعه**(٦٤) ، و كذلك قوله : ( قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله و أخرى كافرة ) إلى قوله : ( إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار )(٦٥)."(٦٦)

## و الثالث : العمل بموجب العلم ...

**فإن العمل بموجب العلم يثبته و يقرره ، و مخالفته تضعفه ، بل قد تذهبه** ، قال - تعالى - : ( فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم )(٦٧) و قال - تعالى - : (و نقلب أفئدتهم و أبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة)(٦٨) وقال – تعالى –:(و لو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً )(٦٩) الآيات ، و قال : ( قد جاءكم من الله نور و كتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام )(٧٠) الآية ، و قال - تعالى - : ( يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و آمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته و يجعل لكم نورا تمشون به و يغفر لكم )(٧١) الآية ."(٧٢)

إذ **"العمل له أثر في القلب من نفع و ضر و صلاح قبل أثره في الخارج** ، فصلاحها(٧٣) عدل لها و فسادها ظلم لها . قال – تعالى - : (من عمل صالحاً فلنفسه و من أساء فعليها )(٧٤)

---

(٦١) [ فصلت - ٥٣ ] .
(٦٢) [ فصلت - ٥٢:٥٣ ] .
(٦٣) [ الحشر - ٢ ] .
(٦٤) قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – في حديثه عما تتم به سعادة العبد : " أن يعرف تفاصيل أسباب الشر و الخير ، و تكون له بصيرة في ذلك بما يشاهده في العالم ، و ما جربه في نفسه و غيره ، و ما سمعه في أخبار الأمم قديماً و حديثاً .
ومن أنفع ما في ذلك تدبر القرآن ، فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه . وفيه أسباب الخير و الشر جميعاً مفصلة مبينة . ثم السنة فإنها شقيقة القرآن ، وهي الوحي الثاني . ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما عن غيرهما . وهما يريانك الخير و الشر و أسبابهما ، حتى كأنك تعاين ذلك إذا تأملت أخبار الأمم و أيام الله في أهل طاعته و أهل معصيته طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة ورأيته بتفاصيل ما أخبر الله به و وعد به ، وعلمت من آياته في الآفاق ما يدلك على أن القرآن حق ، و أن الرسول حق ، و أن الله ينجز وعده لا محالة ، فالتاريخ تفصيل لما عرفنا الله ورسوله به من الأسباب الكلية للخير والشر ."[19] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي(المعروف بالداء والدواء)لابن القيم ، ط.دار الريان للتراث (القاهرة)الأولى (١٤٠٨هـ -١٩٨٧م).
(٦٥) [ آل عمران - ١٣] .
(٦٦) مجموع الفتاوى [ ٣/ ٣٣٠ : ٣٣٢ ] .
(٦٧) [ الصف - ٥ ] .
(٦٨) [ الأنعام - ١١٠] .
(٦٩) [ النساء – ٦ ] .
(٧٠) [ المائدة - ١٥ : ١٦] .
(٧١) [ الحديد – ٢٨ ] .
(٧٢) مجموع الفتاوى [ ٣/ ٣٣١ : ٣٣٣ ] .
(٧٣) أي : النفس .
(٧٤) [ فصلت - ٤٦] .

و قال - تعالى - : ( إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم و إن أسأتم فلها )[٧٥] قال بعض السلف : " إن للحسنة لنوراً في القلب ، و قوة في البدن ، و ضياء في الوجه ، و سعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الخلق . و إن للسيئة لظلمة في القلب ، و سواداً في الوجه ، و وهناً في البدن ، و نقصاً في الرزق ، و بغضاً في قلوب الخلق " .

و قال – تعالى –: ( كل امرئ بما كسب رهين )[٧٦] و قال تعالى - : ( كل نفس بما كسبت رهينة )[٧٧] و قال : ( و ذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي و لا شفيع و إن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا )[٧٨] " تبسل " أي : ترتهن و تحبس و تؤسر ، كما أن الجسد إذا صح من مرضه ، قيل : قد اعتدل مزاجه . و المرض إنما هو بإخراج المزاج ، مع أن الاعتدال المحض السالم من الأخلاط لا سبيل إليه ، لكن الأمثل فالأمثل ، **فهكذا صحة القلب و صلاحه في العدل و مرضه من الزيغ و الظلم و الانحراف** ، و العدل المحض في كل شيئ متعذر علماً و عملاً ، و لكن الأمثل فالأمثل ، و لهذا يقال : هذا أمثل ، و يقال للطريقة السلفية : الطريقة المثلى . و قال – تعالى - : ( و لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء و لوحرصتم )[٧٩] و قال – تعالى –: ( و أوفوا الكيل و الميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا و سعها )[٨٠] .

**و الله – تعالى – بعث الرسل و أنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط ، و أعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له ، ثم العدل على الناس في حقوقهم ، ثم العدل على النفس "**[٨١]

لهذا فإن ما " يقول بعضهم في قوله : ( اهدنا الصراط المستقيم )[٨٢] فيقولون : المؤمن قد هدي إلى الصراط المستقيم ، فأي فائدة في طلب الهدى ؟! ثم يجيب بعضهم بأن المراد : ثبتنا على الهدى . كما تقول العرب للنائم : نم حتى آتيك . أو يقول بعضهم : ألزم قلوبنا الهدى . فحذف الملزوم . و يقول بعضهم : زدني هدى . و إنما يوردون هذا السؤال ، لعدم تصورهم الصراط المستقيم الذي يطلب العبد الهداية إليه ، فإن المراد به العمل بما أمر الله به ، و ترك ما نهى الله عنه في جميع الأمور .

و الإنسان و إن كان أقر بأن محمداً رسول الله ( صلى الله عليه و سلم ) و أن القرآن حق على سبيل الإجمال ، فأكثر ما يحتاج إليه من العلم بما ينفعه و يضره ، و ما أمر به و ما نهي عنه ، في تفاصيل الأمور و جزئياتها لم يعرفه ، و ما عرفه فكثير منه لم يعمل بعلمه ، و لو قدر أنه بلغه كل أمر و نهي في القرآن و السنة ، فالقرآن و السنة إنما تذكر فيهما الأمور العامة الكلية ، لا يمكن غير ذلك ، لا تذكر ما يخص به كل عبد ، و لهذا أمر الإنسان في مثل ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المسقيم .

**و الهدى إلى الصراط المسقيم يتناول هذا كله ، يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلاً ، و يتناول التعريف بما يدخل في أوامره الكليات ، و يتناول إلهام العمل بعلمه ، فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه** ، و لهذا قال لنبيه بعد صلح الحديبية : ( إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك و ما تأخر و يتم نعمته عليك و يهديك

(٧٥) [ الإسراء - ٧ ]
(٧٦) [ الطور - ٢١ ] .
(٧٧) [ المدثر – ٣٨ ] .
(٧٨) [ الأنعام - ٧٠ ] .
(٧٩) [ النساء – ١٢٩ ] .
(٨٠) [ الأنعام - ١٥٢ ] .
(٨١) مجموع الفتاوى [ ٩٨/١٠ :٩٩ ] .
(٨٢) [ الفاتحة - ٦ ] .

صراطا مستقيما )[٨٣] و قال في حق موسى و هارون : ( و آتيناهما الكتاب المستبين و هديناهما الصراط المستقيم )[٨٤] .

و المسلمون ... الذين علموا ما أمر الله به أكثرهم يعصونه و لا يحتذون حذوه ، فلو هدوا إلى الصراط المستقيم في تلك الأعمال ، لفعلوا ما أمروا به و تركوا ما نهوا عنه "[٨٥].

## ⭑ لكن طريق الإيمان يحتاج إلى شيء مع اليقين . فما هو ؟!

إن " الهادي المطلق الذي يهدي إلى كل خير – و كل أحد محتاج إلى هدايته في كل و قت – هو رسول الله ( صلى الله عليه و سلم ) ، ثم أفضل أمته أفضلهم متابعة له ، **وهذا يكون بالإيمان و اليقين و الجهاد** كما قال تعالى - : ( إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله و رسوله ثم لم يرتابوا ) إلى قوله : ( أولئك هم الصادقون )[٨٦] فبين – سبحانه و تعالى – أن المؤمن لابد له من ثلاثة أمور. "[٨٧]

## ⭑ فإن تساءلت : لماذا للجهاد هذة المنزلة ؟! و ما حقيقته ؟!

كان الجواب بأن **" الجهاد دليل المحبة الكاملة .** قال – تعالى - : ( قل إن كان آباؤكم و أبناؤكم و إخوانكم و أزواجكم و عشيرتكم )[٨٨]الآية ، و قال - تعالى – في صفة المحبين المحبوبين : ( يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم و يحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله و لا يخافون لومة لائم )[٨٩]

---

(٨٣) [ الفتح - ١ : ٢] .
(٨٤) [ الصافات - ١١٧ : ١١٨] .
(٨٥) مجموع الفتاوى [ ١٠ /١٠٦ : ١٠٨ ] . وقد قال الإمام ابن القيم – رحمه الله - : " لو نفع العلم بلا عمل لما ذم الله – سبحانه – أحبار أهل الكتاب ، و لو نفع العمل بلا إخلاص لما ذم المنافقين "الفوائد [59] ط.دار اليقين للنشر والتوزيع (المنصورة) الثانية (١٤١٨هـ -١٩٩٧م) تحقيق د.ماهر منصور وكمال الجمل . وقال أيضا : " من أراد من العمال أن يعرف قدره عند السلطان ، فلينظر ماذا يوليه من العمل و بأي شغل يشغله " السابق [77] . وقال أيضا : " علماء السوء ، جلسوا على باب الجنة ، يدعون إليها الناس بأقوالهم ، و يدعونهم إلى النار بأفعالهم ، فكلما قالت أقوالهم للناس : هلموا ، قالت أفعالهم : لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له . فهم في الصورة أدلاء ، وفي الحقيقة قطاع طريق "السابق [89] . وقال أيضاً : " قوله :( و اتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين(١٧٥) و لو شئنا لرفعناه بها و لكنه أخلد إلى الأرض و اتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ) [176:175] الأعراف. فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه . و تأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه من وجوه :
أحدها : أنه ضل بعد العلم ، و اختار الكفر على الإيمان عمداً لا جهلاً .
و ثانيها : أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبداً . فإنه انسلخ من الآيات بالجملة ، كما تنسلخ الحية من قشرها ، و لو بقي معه منها شيء ، لم ينسلخ منها .
و ثالثها : أن الشيطان أدركه و لحقه ، بحيث ظفر به و افترسه ، و لهذا قال : ( فأتبعه الشيطان ) و لم يقل " تبعه " فإن في معنى ( أتبعه ) أدركه و لحقه ، و هو أبلغ من " تبعه " لفظاً و معنى .
ورابعها : أنه غوي بعد الرشد . و الغي : الضلال في العلم و القصد ، و هو أخص بفساد القصد و العمل ، كما أن الضلال أخص بفساد العلم و الاعتقاد . فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ، و إن اقترنا فالفرق ما ذكر .
وخامسها : أنه – سبحانه – لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه، لأنه لم يرفع به فصار وبالاً عليه ، فلو لم يكن عالماً كان خيراً له و أخف لعذابه .
وسادسها : أنه – سبحانه – أخبر عن خسة همته ، بأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى .
وسابعها : أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر و حديث نفس ، و لكنه كان عن إخلاد إلى الأرض ، و ميل بكليته إلى ما هناك ، و أصل الإخلاد اللزوم على الدوام ، كأنه قيل : لزوم الميل إلى الأرض ... و عبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض ، لأن الدنيا هي الأرض و ما فيها و ما يستخرج منها من الزينة و المتاع .
و ثامنها : أنه رغب عن هداه ، و اتبع هواه ، فجعل هواه إماماً له ، يقتدي به و يتبعه .
و تاسعها : أنه شبهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همة ، و أسقطها نفساً ، و أبخلها و أشدها كلباً ، و لهذا سمي كلباً .
و عاشرها : أنه شبه لهثه على الدنيا ، و عدم صبره عنها ، و جزعه لفقدها ، و حرصه على تحصيلها ، بلهث الكلب في حالتي تركه و الحمل عليه بالطرد ، و هكذا هذا ، إن ترك فهو لهثان على الدنيا ، و إن وعظ و زجر فهو كذلك ، فاللهث لا يفارقه في كل حال ... و هذا التمثيل لم يقع بكل كلب ، و إنما وقع بالكلب اللاهث ، و ذلك أخس ما يكون و أشنعه " السابق [ ١٣٥: ١٣٦ ] .
(٨٦) [ الحجرات - ١٥ ] .
(٨٧) مجموع الفتاوى[ ٤٢/٢٨ ] .
(٨٨) [ التوبة - ٢٤ ] و باقيها ( و أموال اقترفتموها و تجارة تخشون كسادها و مساكن ترضونها أحب إليكم من الله و رسوله و جهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره و الله لا يهدي القوم الفاسقين ) .
(٨٩) [ المائدة - ٥٤ ] .

فوصف المحبوبين المحبين بأنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين و أنهم يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم (٩٠) .

**فإن المحبة مستلزمة للجهاد،** لأن المحب يحب ما يحب محبوبه ، ويبغض ما يبغضه محبوبه، و يوالي من يواليه و يعادي من يعاديه ، و يرضى لرضاه و يغضب لغضبه ، و يأمر بما أمر به و ينهى عما نهى عنه، فهو موافق له في ذلك **وهؤلاء الذين يرضى الرب لرضاهم و يغضب لغضبهم** ، إذ هم إنما يرضون لرضاه و يغضبون لما يغضب له ، كما قال النبي ( صلى الله عليه و سلم ) لأبي بكر الصديق في طائفة فيهم صهيب و بلال :" لعلك أغضبتهم ، لإن كنت أغضبتهم لقد أغضبت الله "(٩١) فقال لهم : يا إخوتي ، هل أغضبتكم ؟ قالوا : لا ، يغفر الله لك يا أبا بكر . و كان قد مرَ بهم أبو سفيان بن حرب ، فقالوا : ما أخذت السيوف من عدو الله مأخذها . فقال لهم أبو بكر : أتقولون هذا لسيد قريش؟! و ذكر أبو بكر ذلك للنبي ( صلى الله عليه و سلم ) فقال له ما تقدم ، لأن أولئك إنما قالوا ذلك غضباً لله ، لكمال ما عندهم من الموالاة لله و رسوله ، و المعاداة لأعداء الله و رسوله ...

و إن كانت المحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه و مكروهه ، و ولايته و عداوة ، فمن المعلوم أن **من أحب الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه ، و لا بد أن يحب ما يحبه من جهادهم** ، كما قال – تعالى - : ( إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص )(٩٢) و المحب التام لا يؤثر فيه لوم اللائم و عذل العاذل ، بل ذلك يغريه بملازمة المحبة ، .... و هؤلاء هم أهل الملام المحمود و هم الذين لا يخافون من يلومهم على ما يحب الله و يرضاه من جهاد أعدائه ، فإن الملام على ذلك كثير ."(٩٣)

" و ذلك ، **لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان ، و العمل الصالح ، و من دفع ما يبغضه الله من الكفر و الفسوق و العصيان** ، و قد قال – تعالى -:(قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم و إخوانكم و أزواجكم و عشيرتكم ) إلى قوله – تعالى -:(حتى يأتي الله بأمره)(٩٤) فتوعد من كان أهله و ماله أحب إليه من الله و رسوله و الجهاد في سبيله بهذا الوعيد . بل قد ثبت في الصحيحين ، أنه ( صلى الله عليه و سلم ) قال : " و الذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده و والده و الناس أجمعين "(٩٥). و في الصحيح أن عمر بن الخطاب قال له : يا رسول الله ، و الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال : " لا يا عمر! حتى أكون أحب إليك من نفسك " فقال : فو الله لأنت أحب إلي من نفسي . فقال : " الآن يا عمر. "(٩٦)

**فحقيقة المحبة لا تم إلا بموالاة المحبوب ، و هو موافقته في حب ما يحب ، و بغض ما يبغض .** و الله يحب الإيمان و التقوى ، و يبغض الكفر و الفسوق و العصيان . و معلوم أن الحب يحرك إرادة القلب ، فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات ، فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرادة جازمة في حصول المحبوبات. فإذا كان المحب قادراً عليها حصلها ، و إن كان عاجزاً عنها ففعل ما يقدر عليه من ذلك كان له كأجر الفاعل ...

---

(٩٠) قال الإمام ابن القيم– رحمه الله - : " قال – تعالى - : ( و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ) [ العنكبوت - ٦٩] علق – سبحانه الهداية بالجهاد ، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً ، و أفرض الجهاد جهاد النفس ، و جهاد الهوى ، و جهاد الشيطان ، و جهاد الدنيا ، فمن جاهد هذة الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته ، و من ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد ... و لايتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذة الأعداء باطناً ، فمن نصر عليها نصر على عدوه ، و من نصرت عليه نصر عليه عدوه " الفوائد [ ١٧ ] .

(٩١ ) صحيح : أخرجه مسلم في فضائل الصحابة [ ٢٥٠٤ / ١٧٠ ] و أحمد [ ٥ /٦٤ ] كلاهما عن عائذ بن عمرو .

(٩٢) [ ٤ – الصف ] .

(٩٣) [ ١٠ /٥٧ : ٦١ ] مجموع الفتاوى .

(٩٤) [ التوبة - ٢٤ ] .

(٩٥) متفق عليه : أخرجه البخاري في الإيمان [ ١٤ ] و مسلم في الإيمان [ ٤٤ /٦٩ ] عن أنس – رضي الله عنه ـ .

(٩٦) صحيح : أخرجه البخاري في الإيمان و النذور [ ٦٦٣٢ ] .

**و الجهاد هو بذل الوسع – و هوالقدرة – في حصول محبوب الحق ، و دفع ما يكرهه الحق ، فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد كان دليلاً على ضعف محبة الله و رسوله في قلبه ، ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالباً إلا باحتمال المكروهات** ، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة ، فالمحبون للمال و الرئاسة و الصور ، لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم في الدنيا مع ما يصيبهم من الضرر في الدنيا و الآخرة ، فالمحب لله و رسوله إذا لم يحتمل ما يرى ذو الرأي من المحبين لغير الله مما يحتملون في حصول محبوبهم ، دلَ ذلك على ضعف محبتهم لله ، إذا كان ما يسلكه أولئك هو الطريق الذي يشير به العقل .

و من المعلوم أن **المؤمن أشد حباً لله** ، كما قال – تعالى - : ( و من الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله و الذين آمنوا أشد حبا لله )(٩٧) ... فكلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية ، و كلما ازداد له عبودية ازداد له حبا و حرية عما سواه "(٩٨) .

و بالجملة فإن " قوله – تعالى - : ( إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله و رسوله ثم لم يرتابوا و جاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون )(٩٩) يبين أن **الجهاد واجب، و ترك الارتياب واجب** . و الجهاد - و إن كان فرضاً على الكفاية – **فجميع المؤمنين يخاطبون به ابتداءً ، فعليهم كلهم اعقاد وجوبه ، و العزم على فعله إذا تعين** ، و لهذا قال النبي ( صلى الله عليه و سلم ) : " من مات و لم يغز ، و لم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة نفاق "(١٠٠) رواه مسلم . فأخبر أنه **من لم يهم به ، كان على شعبة نفاق ، و أيضاً الجهاد جنس تحته أنواع متعددة ، و لابد أن يجب على المؤمن نوع من أنواعه** . "(١٠١)

## ⋆ فما حكم الإعراض عن الجهاد إذاً ؟!

أما " **الإعراض عن الجهاد ، فإنه من خصال المنافقين** . قال النبي ( صلى الله عليه و سلم ) : " من مات و لم يغز ، و لم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة نفاق "(١٠٢) رواه مسلم . و قد أنزل الله "سورة براءة " التي تسمى: الفاضحة، لأنها فضحت المنافقين.أخرجاه في الصحيحين عن ابن عباس ، قال : هي الفاضحة ، ما زالت تنزل : ( و منهم ) ( و منهم ) حتى ظنوا ألا يبقى أحد إلا ذكر فيها . و عن المقداد بن الأسود قال : هي " سورة البحوث " لأنها بحثت عن سرائر المنافقين . و عن قتادة قال : هي المثيرة لأنه أثارت مخازي المنافقين . و عن ابن عباس قال : هي المبعثرة . و البعثرة و الإثارة متقاربان . و عن ابن عمر : أنها المقشقشة ، لأنها تبرئ من مرض النفاق . يقال : تقشقش المريض إذا برأ . و قال الأصمعي : و كان يقال لسورتي الإخلاص[١٠٣] : المقشقشتان ، لأنهما يبرئان من النفاق .

و هذة السورة نزلت في آخر مغازي النبي ( صلى الله عليه و سلم ) - غزوة تبوك – عام تسع من الهجرة ، و قد عز الإسلام و ظهر . **فكشف الله فيها أحوال المنافقين ، و وصفهم فيها بالجبن ، و ترك الجهاد . و وصفهم بالبخل عن النفقة في سبيل الله ، والشح على المال .** و هذان داءان عظيمان : الجبن والبخل . قال النبي ( صلى الله عليه و سلم ) : " شر ما في المرء شح هالع ، و جبن خالع "(١٠٤) حديث صحيح **و لهذا قد يكونان من الكبائر الموجبة للنار** ، كما دل عليه قوله : ( ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم

---

(٩٧) [ البقرة - ١٦٥ ] .
(٩٨) مجموع الفتاوى [ ١٠/ ١٩١ : ١٩٣ ] .
(٩٩) [ الحجرات - ١٥ ] .
(١٠٠) صحيح : أخرجه مسلم في الإمارة [ ١٥٨/١٩١٠ ] عن أبي هريرة .
(١٠١)الإيمان [ ١٦ ] .
(١٠٢) صحيح : سبق قريبا .
١٠٣ ) وهما : الكافرون ، والإخلاص .
(١٠٤) صحيح : أخرجه أبو داود في الجهاد [ ٢٥١١] و أحمد [ ٣٠٢/٢ : ٣٢٠ ] و صحح إسناده أحمد شاكر [ ٧٩٩٦ ] .

سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة )(١٠٥) و قال – تعالى - : ( و من يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله و مأواه جهنم و بئس المصير )(١٠٦).

**وأما و صفهم بالجبن والفزع** ، فقال – تعالى - : ( ويحلفون بالله إنهم لمنكم و ما هم منكم و لكنهم قوم يفرقون. لو يجدون ملجئا أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه و هم يجمحون )(١٠٧) فأخبر – سبحانه – أنهم و إن حلفوا أنهم من المؤمنين فما هم منهم ، و لكن يفزعون من العدو فـ ( لو يجدون ملجئا ) يلجئون إليه من المعاقل و الحصون التي يفر إليها من يترك الجهاد ، أو ( مغارات ) و هي جمع مغارة . و مغارات سميت بذلك لأن الداخل يغور فيها ، أي : يستقر كما يغور الماء ( أو مدخلا) و هو الذي يكلف الدخول إليه ، إما لضيق بابه ، أو لغير ذلك، أي: مكانا يدخلون إليه ، ولو كان الدخول بكلفة و مشقة ( لولوا ) عن الجهاد ( إليه و هم يجمحون ) أي : يسرعون إسراعاً لا يردهم شئ ، كالفرس الجموح الذي إذا حمل لايرده اللجام. وهذا وصف منطبق على أقوام كثيرين في حادثتنا (١٠٨) ، و فيما قبلها من الحوادث ، و بعدها .

وكذلك قال في سورة محمد ( صلى الله عليه و سلم ) :(فإذا أنزلت سورة محكمة و ذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم ) أي : فبعداً لهم ( طاعة و قول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم )(١٠٩) وقال – تعالى- : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله و رسوله ثم لم يرتابوا و جاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون )(١١٠) **فحصر المؤمنين فيمن آمن و جاهد .**

و قال – تعالى - : ( لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله و اليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم و أنفسهم و الله عليم بالمتقين. إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله و اليوم الآخر و ارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون )(١١١) فهذا إخبار من الله بأن **المؤمن لا يستأذن الرسول في ترك الجهاد و إنما يستأذنه الذي لا يؤمن ، فكيف بالتارك من غير استئذان ؟!**

**و من تدبر القرآن وجد نظائر هذا متظافرة على هذا المعنى .** "(١١٢)

---

(١٠٥) [ آل عمران - ١٨٠ ] .
(١٠٦) [ الأنفال - ١٦ ] .
(١٠٧) [ التوبة - ٥٦ : ٥٧] .
(١٠٨) أي : مع التار .
(١٠٩) [ محمد - ٢٠ : ٢١] .
(١١٠) [ الحجرات - ١٥ ] .
(١١١) [ التوبة - ٤٤ : ٤٥] .
(١١٢) مجموع الفتاوى [ ٢٨ /٤٣٦ : ٤٣٨] . وقال الإمام ابن القيم – رحمه الله - : " قال الله - تعالى - ( يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله و للرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ) [ ٢٤ – الأنفال ] فتضمنت هذة الآية أمورا : أحدها : أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله و رسوله ، فمن لم تحصل له هذة الاستجابة فلا حياة له ، و إن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه و بين أرذل الحيوانات ، فالحياة الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهراً وباطناً . فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا ، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان . ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ( صلى الله عليه و سلم ) ، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة ، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة ، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول ( صلى الله عليه و سلم ) .
قال مجاهد: ( لما يحييكم ) يعني : للحق . و قال قتادة : هو هذا القرآن فيه الحياة و الثقة و النجاة و العصمة في الدنيا و الآخرة . و قال السدي : هو الإسلام أحياهم بعد موتهم بالكفر . و قال ابن إسحاق : عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير – و اللفظ له - : ( لما يحييكم ) يعني : للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل ، و قواكم بعد الضعف، و منعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم ، و كل هذة عبارات عن حقيقة واحدة و هي القيام بما جاء به الرسول ظاهراً و باطناً .
قال الواحدي : و الأكثرون على أن معنى قوله ( لما يحييكم ) هو الجهاد . و هو قول ابن إسحاق ، و اختيار أكثر أهل المعاني . قال الفراء : إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم ، يريد إنما يقوى بالحرب و الجهاد ، فلو تركوا الجهاد ضعف أمرهم و اجترأ عليهم عدوهم .
قلت : الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا و في البرزخ و في الآخرة . أما في الدنيا فإن قوتهم و قهرهم لعدوهم بالجهاد .
و أما في البرزخ ، فقد قال – تعالى - : ( و لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ) [ آل عمران - ١٦٩ ] .
و أما في الأخرة فإن حظ المجاهدين و الشهداء من حياتها و نعيمها أعظم من حظ غيرهم . و لهذا قال ابن قتيبة : ( لما يحييكم ) يعني : الشهادة .
و قال بعض المفسرين : ( لما يحييكم ) يعني : الجنة . فإنها دار الحيوان و فيها الحياة الدائمة الطيبة . حكاه أبو علي الجرجاني .
و الآية تتناول هذا كله ، فإن الإيمان والقرآن و الجهاد تحيي القلوب الحياة الطيبة . و كمال الحياة في الجنة ، و الرسول داع إلى الإيمان و إلى الجنة ، فهو داع إلى الحياة في الدنيا و الآخرة ...
و قوله : ( و اعلموا أن الله يحول بين المرء و قلبه ) [ الأنفال - ٢٤ ] المشهور في الآية أنه يحول بين المؤمن و بين الكفر ، و بين الكافر و بين الإيمان . و يحول بين أهل طاعته و بين معصيته ، و بن أهل معصيته وبين طاعته ، و هذا قول ابن عباس و جمهور المفسرين .

....................

و في الآية قول آخر : أنه – سبحانه – قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية ، فهو بينه و بين قلبه . ذكره الواحدي عن قتادة ، و كان هذا أنسب بالسياق ، لأن الاستجابة أصلها بالقلب فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب ، فإن الله – سبحانه – بين العبد و بين قلبه فيعلم هل استجاب له قلبه و هل أضمر ذلك أو أضمر خلافه .

و على القول الأول ، فوجه المناسبة أنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة و أبطأتم عنها فلا تأمنوا أن يحول الله بينكم و بين قلوبكم فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم على تركها بعد وضوح الحق و استبانته ، فيكون كقوله : ( و نقلب أفئدتهم و أبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ) [الأنعام - ١١٠ ] وقوله: ( فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ) [الصف - ٥] وقوله : ( فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ) ففي الآية تحذير عن ترك الاستجابة بالقلب و إن استجاب بالجوارح " الفوائد [ ١١٩ : ١٢٣ ] .